مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 19، العدد 73 (شتاء 2008)، ص 170

كتب بالإنكليزية

ذكريات القدس

Jerusalem Memories
Serene Husseini Shahid
Jean Said Makdissi, ed. Introduction by Edward W. Said
Beirut: Naufal Group: 2007. 278 pages.

صدر كتاب "ذكريات القدس" لسيرين الحسيني شهيد باللغة الإنكليزية أولاً، ثم باللغتين الفرنسية والعبرية، وسيصدر بالعربية قبل نهاية السنة الحالية. ويؤلمني أن أقول إن ما كُتب عن هذه المذكرات الفريدة باللغات الأجنبية فاق ما كُتب بالعربية بدرجات؛ وكم كنت أتمنى لو بقيت سيرين الحسيني، ابنة القدس، بيننا في قيد الحياة، لترى كتابها الذي سيصدر باللغة العربية، فهي انتقلت إلى الملكوت الأعلى في الثاني عشر من شباط/فبراير 2008، تاركة لنا كتابها، وهو من أروع ما كتب عن القدس. ولا أقول هذا بدافع العاطفة وحدها، أو الحب الكبير لهما معاً: القدس وسيرين، لكن من منطلق البحث عن إجابة عن السؤال: القدس لمن؟

يجابه سكان القدس العرب في أيامنا هذه عذاباً يومياً لم يحدث مثله في التاريخ لسكان أي مدينة في العالم؛ وما كان مثل هذا العذاب والجور والتهويد ليكون لو أن الدول العظمى، والدول الغربية الأُخرى التابعة لهيمنتها، رفعت صوتاً واحداً ضد ما يجري، كأن القدس لا تخص إلاّ اليهود وحدهم، وتاريخها لا يعني أحداً سواهم، وبالتالي، فمستقبلها بأيديهم. وهذه المذكرات فيها ألف برهان وبرهان على أن مدينة القدس، بتاريخها وحجارتها وشوارعها القديمة وسورها وأرصفتها وكنائسها ومآذنها وأشجارها وناسها وأزيائها وعاداتها وثقافتها هي للعرب؛ وهي أيضاً للذين سكنوها من الجوال الأجنبية، والذين ابتنوا لهم، منذ القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، مجمعات سكنية عرفت بـ "الكولونيّات"، كالألمانية والروسية والأميركية واليونانية. غير أن هؤلاء – كما تروي سيرين شهيد – ما تصرفوا كمحتلين، بل كأصدقاء لسكان المدينة العرب.

ردد كيث وايتلام، رئيس دائرة الدراسات التوراتية في جامعة شيفلد، في مطلع بحثه "أورشليم بين الوهم والحقيقة"، ما جاء في المزمور 137: "إن نسيتك يا أورشليم تنسني يميني. ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك، إن لم أفضّل أورشليم على أعظم فرحي." وعلّق بقوله: "إن هذه الكلمات ذاتها لتعبر اليوم أفضل تعبير عن مشاعر الألم والضياع لدى أولئك الفلسطينيين الذين انفصلوا حديثاً عن مدينتهم القدس، وحُرموا حق العودة إليها." واسترسل وايتلام يتحدث عن كتاب سيرين شهيد: "حيث تسترجع الكاتبة بأسلوب مؤثر قصة طفولتها ويَفْعِها في مدينتها القدس، وتبتعث عالماً مفقوداً من الطمأنينة والسكينة... لقد كان انتزاعها من مدينتها، مثلما كان انتزاع مؤلف المزمور 137، مدعاة لحزن وأسى باقيين أبداً."(1)

يدرس وايتلام فلسطين بعيون الآخرين، وبالعين الصهيونية، وبأعين سكانها الفعليين، منطلقاً من أن فلسطين كانت تُصوَّر في المؤلفات الغربية الأوروبية على الدوام "كتجسيد لماضٍ مغرق في القدم،" بينما تُصورها الصهيونية على أنها "يوتوبيا حديثة في طور التشكل." أمّا أولئك الذين يتحدون ويقاومون تلك الوقائع – أي سكانها – فكل ما بقي لهم هو ألم الذكرى. ويخلص إلى القول: "إن شهادات أفراد من أمثال سيرين الحسيني شهيد تغدو أمراً حيوياً في بناء ذاكرة بديلة وحقيقية عن أورشليم."(2)

ما حكاية هذه "الذكريات"؟

كتبت سيرين ذكرياتها باللغة الإنكليزية، لأنها أرادتها ألاّ تكون لأولادها وأحفادها وحدهم، بل لمن لا يعرفون العربية أيضاً، غير أنها لم تكن تحلم بأن تستقر أوراقها المبعثرة بين دفتي كتاب. وقد روت لي ابنتها ليلى شهيد كيف بانت الدهشة على وجه أمها وهي تستمع إلى إدوارد سعيد يقول لها: "سيرين، يجب أن تُنشر أوراقك هذه في كتاب." فعندما زارها في لندن، سألها ماذا تفعل بأيامها، فقالت إنها تكتب ذكرياتها. غير أن دهشتها وصلت إلى ذروتها حين قال لها إنه سيكتب مقدمة لكتابها إن هي أنهت ما بين يديها. فقالت غير مصدقة: "هل تقصد أنك ترضى بأن تضع اسمك إلى جانب اسمي؟ معقول؟ أنا لست كاتبة... ولا أحد يعرفني..."

وفي كل منهما بوعده، وصدر الكتاب بعد أن قامت جين سعيد مقدسي بمهمتَي التحقيق والتحرير، ومن يعرف الدقة التي تتصف بها جين، ومن قرأ كتابها "جدتي، أمي، وأنا" *(Teta, Mother And Me)* ، الذي روت فيه سيرة ثلاثة أجيال من النساء، يقدّر الجهد الكبير الذي قامت به، مع حرصها على الطابع العفوي الذي يلف الكتاب من ألفه إلى يائه.

يحتوي الكتاب 36 فصلاً، أمّا النصوص فتتلاحق زمنياً ما أمكن، وتختلط فيها الذكريات، وهذا من طبيعة "المذكرات". وسرعان ما يكتشف القارئ أن الأبطال الحقيقيين هما القدس وفلسطين!! حتى آل الحسيني وآل العلمي الذين تنتمي إليهم الكاتبة، وهم من أعرق عائلات القدس، فإنها لم تتحدث عنهم، ولم تتوقف عند بعض نسائهم ورجالهم إلاّ من أجل الحديث عن القدس.

ولدت سيرين الحسيني في القدس في سنة 1920، وفي الرابعة أرسلت إلى مدرسة حضانة في الكولونية الأميركية القريبة من البيت، ثم إلى حضانة "الساليزيان" الإيطالية. وفي الثامنة انتقلت إلى مدرسة تابعة للمجلس الشرعي الإسلامي الأعلى تقع داخل السور، وكانت هذه المدرسة تشدد على مواد العلوم والتربية لا اللغات. وتذكر سيرين أن معلماتها لم يكنَّ من فلسطين وحدها، بل من لبنان أيضاً، فتذكر منهن وداد وإحسان محمصاني، وزاهية مقصد. أمّا في مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي، فانتقلت إلى مدرسة الفرندز الداخلية في رام الله، حيث علمتها إيفا بدر مادة اللغة العربية. أمّا دراستها الجامعية فكانت في الجامعة الأميركية في بيروت التي انتقلت العائلة إليها في أعقاب اندلا ع الثورة الكبرى في سنة 1936.

تروي سيرين عن بداية وعيها السياسي في مدرسة الفرندز، يوم كانت تصلها جريدة "اللواء" التابعة للحزب العربي الفلسطيني الذي كان يرئسه والدها جمال الحسيني. كانت الطالبات المراهقات يتخاطفن الجريدة، وتتباهى كل منهن بحسن اطلاعها على الأنباء، إلى أن كان يوم أخفت فيه صديقاتها عنها الجريدة، ثم اتضح لها السبب؛ لقد اعتُقل والدها. بكت كثيراً ظناً منها أن الاعتقال لا يكون عادة إلاّ للمجرمين، ومرّت أيام أدركت بعدها، هي ورفيقاتها، ما معنى الاعتقال السياسي (ص 78 – 79).

لم تكن الشؤون السياسية أحد همومها، كما تروي، غير أن السياسة ترشح من هذه الفقرة أو تلك كما يرشح الماء من الجرة الملآنة؛ أمّا التاريخ فهي ترويه ببساطة شديدة كأنها لا ترويه، والقارئ يشعر بهيبة التاريخ بين الصفحات، فهي حين تروي شيئاً عن طفولتها في القدس، أو الأماكن التي أمضت فيها أيام دراستها، أو أيام الصيف في بلدة شرفات، أو أيام الشتاء في أريحا، تسرد أدق التفصيلات، مستعينة بذاكرة هي الأقرب جودة ودقة إلى عدسة الكاميرا؛ فالتاريخ عند سيرين الحسيني يُقرأ من خلال المشاهد المصورة.

حين تصف سيرين الشوارع والشجر والأبنية، أو حين تصف القدس القديمة، لا تنسى أن تصف الفلاحات وهن يتهادين بأثوابهن البديعة التطريز، حاملات على رؤوسهن محاصيل القرية لبيعها في المدينة؛ ولا تنسى وسيلة النقل الوحيدة حينئذٍ داخل السور، وهي الحمير. بالإضافة إلى ذلك، تتحدث الكاتبة عن أنواع الشراب ومناداة البائعين، فهذا ينادي على عصير الزبيب، وذاك على سواه، وتتوقف أيضاً عند أزياء النساء والرجال، وحتى أزياء رجال الدين من مسلمين ومسيحيين. أمّا المسجد الأقصى المبارك، فقد وصفته كما كانت تراه في كل يوم من نافذة المدرسة، وهي المدرسة ذات الطراز المملوكي.

وفي حديثها عن تآخي الأديان، لا نجد مواعظ ولا قصائد، بل ذكرياتها فقط، وكيف كانت تسمع في كل يوم في بيتها في المصرارة أجراس الكنيسة الروسية في حي المسكوبية، مع نداء "حي على الصلاة"؛ لقد تميزت سيرين بأذن مرهفة، كما تميزت عينها بدقة لا تبارى، فهي كتبت حتى عن أصوات أقدام المارين فوق الشوارع المرصوفة بالحجارة، لما كان لها في نفسها من موقع مميز.

هذه هي القدس حقاً

البشر أيضاً لهم مكانهم في الكتاب، غير أنهم يظهرون كملحقين بالوطن والمدينة والقرية، فالأبطال هم شوارع القدس وبساتين شرفات وبيارات أريحا والمنازل القديمة، ثم يكتمل الحديث عن هذا الوطن ببعض ما قاله البشر، أو قاموا به.

من القليلين الذين يتكرر الحديث عنهم، والدها جمال الحسيني وخالها موسى العلمي، وكلاهما من أعلام فلسطين، غير أنها تعطي لكل منهما وصفاً موجزاً ودقيقاً على العكس مما هو معروف عن كل منهما. قالت إن والدها هو الحالم والمتفائل دوماً، بينما خالها هو المتشائم، غير أنه المتألق على الرغم من تشاؤمه. كانا صديقين يجمع

بينهما كثير من الأفكار والمُثل، إلاّ إن مزاج كل منهما كان مختلفاً عن الآخر، وحين كانا يتجادلان، كان حس الدعابة لدى كل منهما يطغى على اختلافاتهما (ص 97). وروت بكل بساطة عن خالها (المحامي المتخرج من جامعة كمبردج) وكيف عاش حياته كلها على أمل بأن يصحو العالم في النهاية ويدرك الظلم الذي أُلحق بالفلسطينيين، فيبادر إلى تصحيح الخطأ، أي محو الظلم الفادح (ص 224)!! أليس هذا هو حلم كل فلسطيني لا يقرأ إلاّ الجريدة، ولا سقف له غير الخيمة؟

وللمرأة مكانها أيضاً. فقد أفردت لكل من اللواتي تركن في نفسها الأثر الكبير فصلاً بمفرده، فكتبت عن "الست وجيهة" زوجة عبد القادر الحسيني التي لم يُعرف عنها كثير غير ثرائها وجمالها، وكونها زوجة شهيد القسطل. فتذكر كيف أنها كانت مناضلة بكل ما في الكلمة من معنى (ص 159 – 164).

وفي فصل آخر تتحدث عن "الست زكية" الحسيني، وكم كانت صاحبة شخصية قوية وجذابة، وهي الزوجة الثانية لموسى كاظم باشا الحسيني، رئيس اللجنة التنفيذية، وأحد زعماء البلد، وعن ابنه عبد القادر من زوجته الأولى (وكانت شقيقة الست زكية)، والذي أصبح من قادة الإضراب والثورة، فتقول إن القائد وصله ذات يوم، نبأ أن زوجة أبيه اتصلت بالمندوب السامي هاتفياً لتطلب منه توفير الماء لمنزلها، وأن المندوب السامي أمر بتلبية مطلبها. فسارع إلى منزل الست زكية، منزل والده، وقد فرحت بزيارته، وكانت فخورة به وهو يدخل المنزل بثيابه العسكرية، فقبل يدها، وباركته، وبعد دقائق، وبينما كانت تقدم له القهوة مرحبة به، قال: "خالتي العزيزة، سمعت أنك اتصلت بالمندوب السامي للمساعدة في توفير الماء بعد انقطاعه. جئت لأذكرك بأنك لست وحدك في هذه المعاناة. كما جئت لأحذرك، إذ بينما نحن نتكلم الآن، يحاصر رجالي منزلك. لقد زنروه بالديناميت. مكالمة واحدة ثانية مع المندوب السامي تؤدي إلى نسف المنزل." وكانت هذه الحادثة سبباً في مغادرة الست زكية القدس إلى بيروت (ص 145 – 146).

ذكريات سيرين عن أمها نعمت فيضي العلمي متناثرة، وتوحي بصلابة هذه المرأة وثقافتها، وهي التي أتقنت ثلاث لغات أجنبية: الإيطالية والفرنسية والإنكليزية. وهنا نتوقف عند زيارة الأم وبناتها للقدس في سنة 1972، فتقول سيرين إنه ما إن وصلت السيارة أمام منزلهن، حتى نزلت الأم معتمدة على العصا، ولم تجرؤ أي من بناتها الأربع، سيرين وملك وهالة وجمانة، على النزول، لكنهن لاحظن أن البيت على حاله، بينما منزل الدكتور توفيق كنعان المواجه له، قد سوي بالأرض ولم يبق منه حجر.

صعدت الأم الدرجات الثلاث وقرعت الباب ثلاث مرات. فُتح الباب وظهرت امرأة يهودية في متوسط العمر، وسمعت البنات أمهن تقول بأدب وحزم: "هل تأذنين لي بالدخول لأرى بيتي؟" قالت المرأة بدهشة: "بيتك؟ نحن اشتريناه." وردت أم حسن بأنفة: "أنا لم أبع بيتي." هنا أدركت "صاحبة البيت" ما يجري، فقالت: "عليهم اللعنة. كان لنا بيتنا في العراق. ما كان هناك ما يحوجنا إلى أن نأتي إلى هنا لنواجه حالة كهذه." وابتعدت كي تدخل أم حسن منزلها (ص 196 – 198)!!

ذكريات سيرين شهيد لم تقتصر على الأقرباء، أو العائلات الكبرى، فهي تتحدث أيضاً عن أبناء القرى والبسطاء وبالحماسة نفسها، بل أشد، ولا سيما حكاية عايشة أم عبد.

كُتب كثير في تاريخ فلسطين عن الأمهات القرويات اللواتي كانت الواحدة منهن عندما تشاهد ولدها شهيداً أمامها في ساحة القرية، لا تصرخ، كي لا يبادر الجنود الإنكليز إلى نسف منزله، والعبث بالقرية، هدماً وحرقاً وتقتيلاً... لكنني وجدت في حكاية أم عبد، حكاية وطنية رائعة تختلف قليلاً عما في كتب التاريخ.

أم عبد من قرية صغيرة قرب البيرة، توفي زوجها تاركاً لها طفلاً وحيداً قامت بتربيته وتعليمه. وعندما قامت ثورة 1936 كان عبد قد كبر وأصبح حجّاراً، يقطع بإزميله الحجارة ويهذبها من الصباح حتى الغروب، الأمر الذي جعل أم عبد ترتاح من التفكير في مستقبل ولدها، غير أنه لم تتنبه كيف ومتى التحق بالمجاهدين. ذات يوم دهم الجنود القرية، ووضعوا جثمان فلسطيني شهيد في الساحة. وقفت أم عبد مع الواقفين في الصف الطويل، وقلبها يفطر أسىً على أم الشهيد! وعندما جاء دورها، مرت بالقرب من الجثمان، فرأت وحيدها عبد مسجى. صعقتها المفاجأة فارتجفت بشدة وترنحت حتى سقطت قريباً منه، وهنا صاح الجنود يشتمونها: "إذاً، هذا هو ابنك؟" فراحت تئن وهي تقول: "ابني! من قال إنه ابني؟ هو ابن كل الأمهات. أنا أبكي من أجل أمه! من أجل كل الأمهات!.." وهكذا أنقذت قريتها، ودفنت أحزانها بهدوء، بينما حمل الجنود جثمان ولدها ودفنوه في مكان قصي (ص 105 – 109).

قالت سيرين إنها لم تكتب في السياسة، لكنها لا تعلم كم أفادتنا وهي تروي حكاية "بيت الشرق"، الذي كان مقراً للمناضل فيصل عبد القادر الحسيني، وبيتاً للشعب كله، وقد أقفله الإسرائيليون في إبان الانتفاضة الثانية.

لقد شيّد إسماعيل بك حقي موسى الحسيني، مدير التعليم في القدس في أواخر العهد العثماني، بيتاً له ولأسرته في حي الشيخ جراح في سنة 1897، كان من أجمل بيوت القدس، وشهد استقبال زوار كثيرين، كان بينهم، بل أكثرهم أهمية وشهرة، ويلهلم الثاني، إمبراطور ألمانيا، يوم مر بالقدس في أثناء زيارته الشهيرة للسلطان عبد الحميد الثاني، سنة 1898. لقد ارتأى أهل القدس أن يدعو إسماعيل بك الإمبراطور إلى منزله، فهو الأفخم في القدس كلها، بناء وأثاثاً وحديقة. وكان احتفالاً تحدثت عنه القدس لأعوام؛ أمّا أبرز مآثر إسماعيل بك، فلم يكن مجرد الحفلات والدعوات، بل إصراره على افتتاح مدارس حكومية للإناث كما للفتيان، وكان هو نفسه يتقن التركية والفرنسية والإنكليزية. غير أن إصراره هذا قاده إلى المنفى في أضنة، ولم يُسمح له بالعودة إلاّ بعد خمسة أعوام (ص 209 – 210). وتوارث نسله البيت الفسيح الجميل حتى انتهى إلى "بيت الشرق".

إقفال "بيت الشرق" إذاً، لم يكن مجرد قرار إسرائيلي سياسي تعسفي كالعادة، بل قراراً لمحو التاريخ من الذاكرة، ولإلغاء مرحلة من تاريخ القدس شهدت ظهور رجال كإسماعيل الحسيني، وهو قرار يمهد لهدم البناء الذي استقبل يوماً قيصر ألمانيا الذي فشل في إقناع السلطان عبد الحميد بتلبية رغبة هيرتسل في الاستيلاء على فلسطين!!

انتقلت سيرين بذكرياتها إلى خارج فلسطين بحكم الأمر الواقع، لكنها لم تتحدث إلاّ عما له علاقة مباشرة بالوطن. لم تذكر شيئاً عن رحلاتها حول العالم، ولا حتى أسماء بناتها، ميّة وليلى وزينة، ولا شيء ذا أهمية عن زوجها الدكتور منيب شهيد، أو عن شقيقها حسن، وهو من سبقها في الكتابة عن القدس في مذكراته الغنية الممتعة "عودة إلى القدس" *(Return to Jerusalem, 1989)*، ولا شيء يذكر أيضاً عن نشاطها المتعدد إلاّ العناوين، فقلمها لم يكن يحدوه الشوق إلاّ إلى القدس وفلسطين، وهذا ما دعاها إلى الكتابة التفصيلية عن زيارتها للقدس وأريحا فيما بعد.

فهل من داع إلى العودة إلى السؤال الذي طرح في البداية، وفي هذه المذكرات جواب عن السؤال: القدس لمن؟

بيان نويهض الحوت
مؤرخة وكاتبة

(1) كيث وايتلام، "أورشليم بين الوهم والحقيقة"، في: "القدس: أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ"، تحرير توماس ل. تومبسون وسلمى الخضراء الجيوسي، ترجمة فراس السواح (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2003)، ص 351.

(2) المصدر نفسه، ص 358، 371.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx